

المحاضرة رقم: 01

النقد النفسي

امتد المنهج النفسي والأنثروبولوجي في مجال النقد الأدبي إلى عصر البنيوية وما بعدها، وله جذور بعيدة في النقد الأدبي، وتتمثل في تلك الخطوات التي لم تتبلور بعد إلى صيغة المنهج.

نبدأ بما قدمه "أفلاطون" عن أثر الشعراء في منظومات القيم والحياة في جمهوريته الفاضلة وكذلك نظرية التطهير مع "أرسطو" والتي سعت إلى ربط الإبداع الفني بوظائفه النفسية.

وكذلك تلك المقولات النقدية التي لمسناها في النقد العربي القديم والتي كانت دوما تسعى إلى ربط الشعر بنفسية الشاعر أو المتلقي.

لكن عموما لم يبدأ المنهج النفسي بشكل علمي منظم إلا مع بداية القرن "19" بصدور مؤلفات "سيغموند فرويد" في التحليل النفسي للإبداع في الفن والأدب كتجليات للظواهر النفسية.

انطلق فرويد في أبحاثه من خلال تمييزه بين الشعور واللاشعور أي بين مستويات الحياة الباطنية واعتبار اللاوعي أو اللاشعور هو المخزن الخفي للشخصية الإنسانية، وهو الذي يظهر بطريقة غير مباشرة على السلوك والإبداع والإنتاج الفكري.

وبدأ بتفسير الأحلام باعتبارها نافذة يطل منها اللاشعور لتعبر بها الذات عن نفسها، وقد حدد خصائص الحلم بمجموعة من الأوصاف منها: التكثيف، الإزاحة، الرمز، وأن الحلم يوجز ظواهر فيسقط كثيرا من التفاصيل، ويكتفها بطريقة بالغة، وينقلها من مجالها الحسي إلى مجال حسي آخر، ويستخدم في ذلك رموزا كثيرة.

لجأ فرويد إلى تاريخ الأدب فاستمد منه بعض المقولات ليسمي بعض ظواهر العقد النفسية، مثل عقدة "أوديب" وعقدة "إكتر" كما حلل بعض اللوحات التشكيلية الفنية والأعمال الأدبية والشعرية وذلك للتدليل على صحة نظرياته في التحليل النفسي.

اهتم فرويد بالظواهر المرضية كالعصاب -انفصام الشخصية- وربطها بالأعمال الإبداعية، فكانت نقطة ارتكازه برفقة تلاميذه تتمثل في الكشف عن القوانين الخفية والمضمرة التي تعمل بها الذات الإنسانية. وبالتالي الكشف عن طبقات الشخصية، للوصول إلى حالاتها المختلفة وتجلياتها، وكل ذلك بهدف علاج أمراض نفسية أو حالات شاذة.

لقد بنت نظرية التواصل وغيرها من نظريات اللغة واللسانيات أن العملية الأدبية تقوم وفق ثلاثة أطراف هي: المرسل، المرسل إليه، الرسالة، ويمكن أن نعتبر أن التحليل النفسي للأدب انطلق ابتداء بالاهتمام بالمرسل، أي المبدع الأديب بعينه، والربط بين إنتاجه الأدبي وبين تاريخه الشخصي، وهذا الأخير يتمثل في مجموعة الخبرات المتراكمة لديه منذ طفولته حيث تتكون استجاباته ومشاعره وتوتراته، وتتشكل لديه أيضا طريقة نظريته إلى الأشياء، وبذلك تتكون مواقفه من الحياة، وموازة مع ذلك تتكون منظومة رموزه واستجاباته العاطفية، فإن هو عانى من حرمان أو صادفه بعض التجارب القاسية، التي ستصل سلوكه وتصوره، وكيفية بناء رموزه، فإذا تحول هذا الإنسان في مستقبله إلى مبدع (شاعر، كاتب، ...) سيكون محكوما بتجاربه الطفولية التي أصبحت تمثل الجذر الرئيسي لكل إبداعاته، بل أصبحت مرجعيته في كل ما ينتجه من أعمال إبداعية.

إذن هناك علاقة وطيدة بين العالم الباطني للمبدع وما يظهر منه في ممارسته لنشاطاته، ومن ثم كان هناك ربط التفوق في الإبداع أو أي عبقرية بأي لون من ألوان الجنون، فذروة التفوق في الإبداع تمثل بالنسبة لعلماء النفس ذروة الشذوذ والخروج عن الحياة السوية.

هذه الفكرة ساهمت كثيراً في خلق فرع من فروع الدراسات النفسية والأدبية والذي سمي "علم نفس الإبداع"، إذ تم فيه اعتبار المبدعين حالات تخضع للتحليل عن طريق مجموعة من الاختبارات والأسئلة المصممة بطريقة منهجية وعلمية، ثم استخلاص النتائج الماثلة عنها، كما يدخل في هذا التحليل مسودات العمل الإبداعي والتي تكشف عن حالات الاختيار والتصويب والتعديلات، ومن خلال تحليل المسودات يقوم المحلل النفسي بدراسة كيفية تفاعل الذات مع اللغة وعمليات التصويب فيبحث في أسبابها ونتائجها.

فكل هذه التغييرات التي تطرأ على العمل الإبداعي عبارة عن إشباع لحاجة نفسية لدى المبدع.

نشأت في بيئتنا العربية في منتصف القرن العشرين مدرسة في مجال علم نفس الإبداع والتي أسسها العالم "د. مصطفى سويف" من خلال كتابه المشهور "الأسس النفسية للإبداع الفني" في الشعر خاصة، وفيما بعد تفرعت الدراسة إلى بقية الأجناس الأدبية من قصة ورواية ومسرح، فظهرت كتب متشعبة منها: "الأسس النفسية للإبداع".

المراجع:

- خير الله عصار: مقدمة لعلم النفس الأدبي، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة/الجزائر، 2008.
- سمير حجازي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، دار التوفيق للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، دمشق/سورية، 2004م.
- صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر: دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة/ 1996.
- مجموعة من الكتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، سلسلة عالم المعرفة، تر: رضوان ظاظا، العدد 221، الكويت، مايو 1997.